تلويحة

أن تغفل عمّا حذّرتنا منه

حسن سامي يوسف

استطاع الكاتب الفلسطيني السوري، الذي رحل عن عالمنا قبل أيام، أن يرى في أعماله ما بقينا نُنكر رؤيته، ويسمع ما كنّا نُغلق آذاننا عنه، وأن يُدرك ما أغفلناه: تلك الخيبات والشروخ التي كانت على وشك أن تهدم الأحلام على رؤوسنا

يزن الحاج

قليلون من جيلنا من يتذكّرون مسلسل «شجرة النارنج» (1989). قد نتذكّر مشاهد أو لقطات سريعة، ويتكفّل الخيال بما تبقّى ليُكمل الصورة. ولكنّ المسلسل يشغل جزءًا من ذاكرتنا، من ماضينا، مثل قريب مسافر مرّ بنا مرّة أو مرّتين والتصقَ بالذاكرة كما لو كان قد مرّ بالأمس. حالة غريبة، ولكن لعلّها أفضل تعبير عن صلة مسلسلات حسن سامي يوسف (1945 - 2024) بحياتنا. هو موجود، ولو لم نعرفه كفاية. يكفي أن يمرّ مرّة حتى يترك أثرًا كالوشم.

ثم جاءت التسعينيات وجاء مسلسل «نساء صغيرات» (1999)، متزامنًا مع مراهقتنا الفائرة؛ نرى سورية التسعينيات على خلفية قصّة حُبّ مستحيلة بين كاتب كهل وفتاة في العشرينيات. كان لحضور نورمان أسعد وجمالها الخلّاب السبب الأكبر الذي دفعنا إلى متابعة قصّة الحُبّ تلك. وكذلك عبد الهادي الصبّاغ في أحد أجمل أدواره. كنّا نُتابع نموّ الحب ثم انكساره، فنتمو وننكسر، غافلين عن باقي الأحداث التي كانت تُوشّق انكسار الأحلام في التسعينيات التي كنّا نظنّها عقد الأحلام الجميلة، بينما كان حسن سامي يوسف ونجيب نصير يومئان إلى الشروخ التي ستهدم الأحلام على رؤوسنا قريبًا، أكانت خيبات حُبّ أو خيبات بلاد أو خيبات عائلة تتفكّك أمامنا، ونحن نظنّ واهمين أنّنا في منجى.

تلاه «أسرار المدينة» (2000) حين بتنا أكبر قليلًا فأدركنا معنى الانكسارات التي ستترك شروخها في القلب والروح قريبًا. أدركنا معنى الطبقات الاقتصادية وبداية تخلخلها الواضح قبل أن تفترق وتتّسع الهوّة. كنّا نتابع قصّة شاب وقصّة حُبّ كما ظننّا، غير أنّ العقل بدأ يربط ما كان عاجزًا عن ربطه من قبل. انكسار الآباء، تمزّد الأبناء، صدوع صور العائلة، أسى الشوارع، شيخوخة الشام التي كنّا نحلم بها ونراها شابّة أبدًا لا تشيخ، لكنّ أولى سنوات الألفية لطمتنا بادّعاءات الرئيس الشاب، وبانغلاق جميع مظاهر الحياة باستثناء انفتاح اقتصادي أوصد معظم أبواب الأمل، فكان الحريق.

كنّا نُهدهد ما تبقّى من آمالنا، ونحن نستعد للدخول في الجامعات، محاولين إنكار أنّ ما يحدث أمامنا سيحدث لنا، فجاءت الصفعة في «أيامنا الحلوة» (2003)، لتوقظنا من سباتنا اللذيذ. لا، أنتم لا تعرفون الشام، ولا تعرفون البلاد. ليست الشام شوارع باب توما، والحمرا، والصالحية. أزيلوا الغشاوة عن أعينكم وادخلوا الشوارع الجانبية كي تروا المدينة الحقيقية، كي تتعرّفوا إلى الكلمة التي ستُعرّف الزمن القادم برمّته: «العشوائيات»، حيث يعيش الهامش وأناسه، حيث يتضاعف هذا الهامش ويتضخّم ويزداد أناسه الذين بدأوا ينزلقون من طبقتهم الوسطى، إلى أن بدأ يهدّد بقضم المدينة بأسرها. ثمّة كثيرون صُدموا حين رأوا الأزقّة الكالحة القذرة التي تدور فيها الأحداث، قبل أن نكتشف لاحقًا أنّ الرقابة ما كانت ستسمح بتصوير المسلسل إلّا بعد «تجميل» تلك المناطق. إنّ كانت العشوائيات هذه مجمّلة، فما وجهها الفعلي؟ يبوح لنا مُخرج العمل هشام شربتجي بأنّها مساحات شديدة الضيق مثل قبور لا تُتيح للكاميرا أن تدور، فكيف بأرواح من يعيشون هناك؟ ما الكابوس الذي ينتظرنا؟

كان الردّ في مسلسل «الانتظار» (2006)، الذي اظنّه أفضل مسلسل للثنائي حسن سامي يوسف ونجيب نصير، وأخرجه الليث حجّو، بل لعلّه أفضل مسلسل اجتماعي سوري. أهلًا وسهلًا بكم في العشوائيات التي ستلتهم كلّ شيء؛ أهلًا بكم في دنيا الضيق والقسوة والبطش؛ أهلًا بكم في غرف الأسرار التي يكبر فيها جيل سيتمرّد بعد بضع سنوات؛ أهلًا بكم في حكاية لا أبطال فيها، لأنّ دنيا الحكاية المدينة الأخرى تتبجّح بتضاعف عدد السيارات، وحفلات السمر، وليالي السهر والجنس. كان «الانتظار» جرس الإنذار قبل الحريق، ولكنّنا فضلنا أنفسنا عنه، فما هو إلّا مسلسل لعلّ صانعيه بالغوا ببعض الشيء. نحن في الفيئات التطوير والتحديث، سنوات الرخاء، أيام افتتاح جامعات جديدة، ليالي مشاوير المشي الجميلة. ولكنّ يوسف ونصير كانا يريان ما نُنكر رؤيته، ويسمعان ما نُغلق آذاننا عنه، ويدركان ما غفلنا عنه في لهوجتنا اليومية. كلّ هذا سيحترق، كلّ هذا سيُقتل، كلّ هذا سيموت، ولا نجاة لأحد.

ما من سيناريوهات تلفزيونية سورية نافست سيناريوهات هذا الثنائي إلى اليوم، بل إنّ أفضلها أكد المؤكّد حين أخفقت المسلسلات التي عمل عليها كلّ منهما منفردًا. غادر نجيب نصير إلى السيناريوهات الخفيفة فرارًا من جحيم البلاد، بينما حاول يوسف تدوين السنوات اللاحقة فأخفق لأنّه بات ينظر الآن بعين واحدة فاختلّت الصورة. يدين تلك لا تسمح بوجود أبطال، وإنّ اختار الناس بطلًا شعبيًا يشبهونه ويشبههم، فقد حكموا عليه - من دون أن يدركوا - بالموت. وأهلًا بكم في العالم الذي يُقتل فيه البشر من أجل حفنة نقود، ومن أجل تعدٍّ على مترين من الأرض، ومن أجل لا شيء، لا شيء لأنّ الجميع مخنوقون مكبوتون مُذلّون مُهانون، بينما شوارع يوسف لنصير بخبرته الرهيفة في التقاط نبض الناس المهمّشين، ويدين نصير ليوسف ببراعة الكلمة والصورة والمشهد. وكأنّ هذا الثنائي الذي وثّق أحلامنا قبل الحريق، احترق بلظى النار أيضًا وأصابته اللعنة التي كان يُحذّرنا من قدومها. لمسلسلات يوسف اللاحقة: «الغفران» و«الندم» على الأخص، جمهور كبير من شريحة الشباب، غير أنّ تلك المسلسلات كانت ناقصة، كانت تبدو وكأنّها تدور في كوكب موازٍ فيه بلد اسمه سورية، وأناس سوريّون يعيشون في طبقة وسطى تلاشت في عالمنا هذا وبقيت في ذلك العالم الموازي المغري. نقل يوسف الأنكسار من حوارات العشوائيات إلى مشاهد الحزن، وإلى هموم أبطاله المرفّهين، الذين ينحصر همّهم في الحُبّ وفي الكتابة، وكأنّنا في سنوات التسعينيات. وكأنّ يوسف علّق هناك ولم يخرج، وقد غفل عمّا كان يحذّرنا من إغفاله.

(كاتب ومترجم من سورية)

> يكفي أن يمرّ مرّة واحدة حتى يترك أثرًا كالوشم
>
> كان مسلسل «الانتظار» بمثابة جرس إنذار قبل الحريق

حسن سامي يوسف

في زمن آخر

رتّما كان حسن سامي يوسف يُفرغ انكساراته الفعلية في الرواية التي بدا ينشط في كتابتها ونشرها مع سنوات اللاحقة، إلّا أنّ الروايات حملت فرديّة الكهل (ومن ثمّ الشيخ) الذي يوثّق انكسارات قد تتوازى وقد تتقاطع مع انكسارات الواقع الفعلية وقد لا تتقاطع. رتّما كان لرواياته الجديدة أن تبدو أبهى لو نُشرت في زمن آخر، ورتّما كان لـ«ندمه» و«غفرانه» أن يتألّقا أكثر لو كتبهما قبل عشرين عامًا. ولكنّ الزمن لا يرحم.

كتاب

ماريبيل فييرو إعادة تفكير في السرديات الوطنية

هكذا كُتب تاريخ الأندلس

في كتابها «الأندلس»، تدعو الباحثة الإسبانية إلى تأمّل الطريقة التي كُتب بها تاريخ إسبانيا المتعلّق بفترة الوجود العربي الإسلامي فيها

جعفر العلوني

في أربعينيات القرن التاسع عشر، بدأت تظهر بشكل خجول، في بعض نصوص المؤرّخين الإسبان، كلمة «حروب الاسترداد» Reconquista، في سياق يقارن «استرداد» الأندلس بطرد الجيوش النابليونية على يد رجال حرب عصابات بسطاء. وعلى الرغم من ظهور حركة مناهضة لهذا المصطلح، في بداية القرن العشرين، بسبب تلوّثه الأيديولوجي وما يعنيه من رفض لحقبة تكاد تكون الأهمّ في التاريخ الإسباني، فإنّ الحرب الأهلية الإسبانية (1936 - 1939) ونظام فرانكو، أوقفا أيّ جدل حول الأمر؛ إذ سرعان ما احتلّ المصطلح نصوص التاريخ والخطابات الرسمية والمنابر السياسية والإعلامية.

أدّى ذلك، بشكل أو بآخر، إلى اختراع «تقليد اصطلاحي»؛ وهو ما عبّر عنه بكلمات شهيرة رئيس الحكومة اليميني السابق خوسيه ماريا أثنار عام 2004، في جورج تاون بالولايات المتّحدة، حينما قال: «رفضت إسبانيا أن تكون مجرّد قطعة أخرى من العالم الإسلامي»، محاولاً بذلك صياغة مفهوم خاصّ لإسبانيا.

في كتابها «الأندلس»، الصادر عن دار «كاتارتا» ضمن سلسلة «ماذا نعرف عن؟»، تحاول الباحثة الإسبانية والمختصّة في دراسات الشرق الأوسط، ماريبيل فييرو، تصحيح الكثير من الأخطاء الشائعة والمقصودة في بعض الأحيان؛ لأسباب سياسية وأيديولوجية وقومية، والمتعلّقة بالمصطلحات والألفاظ المستخدمة عند الحديث عن الفترة التي تُعرف بالعصر الأندلسي، داعية القرّاء إلى التأمّل في كيفية كتابة «التاريخ الوطني» لإسبانيا، في ما يتعلّق بأكثر من ثمانية قرون من الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

هل هي الأندلس؟ هل هي إسبانيا المسلمة؟ هل هو غزو عربي إسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية؟ وهل نتحدّث إذن عن حروب استرداد؟ قبل أن تحاول الباحثة الإجابة عن هذه الأسئلة، انطلاقًا من الدراسات التاريخية والعلمية، تعود إلى الخلفيات التاريخية والثقافية والسياسية لهذه الأسئلة والمصطلحات والمفاهيم التي تحمل تاريخاً وراءها، وبالتالي، ترى أنّ من الضروري إمّا التخلّي عنها، أو إعادة التفكير فيها عندما لا تكون منسجمة مع الواقع، وعندما تحمل عبئاً أيديولوجياً، لا يمكن من خلاله فهم الحقائق التاريخية بطريقة صحيحة. توضّح فييرو أنّ الجدل القائم ارتبط بإنشاء الدولة القومية الإسبانية وديناميكياتها الداخلية اللاحقة، خاصّة منذ القرن التاسع عشر فصاعداً، حيث تمّت كتابة «تاريخ وطني» قام بشكل جوهري على أساس عمليات فرز واختيار ما كان مطلوباً دمجه، وما كان مطلوباً رفضه أو تركه. هكذا بدأ الجدل حول الأندلس، فنظام فرانكو، قام على أساس أنّ إسبانيا مسيحية كاثوليكية، وأنّ الوجود العربي فيها جاء بشكل رئيسي من أجل أسلمة شبه الجزيرة الإيبيرية المسيحية ونزع هويتها الكاثوليكية. وقد عمل مؤرّخون على خدمة هذه النظرية وترسيخها. ومن هنا، كانت فكرة «حروب الاسترداد» التي لا تعني استرداد الأراضي التي كانت واقعةً تحت سيطرة المسلمين فحسب، بل أيضاً استرداد هوية إسبانيا الكاثوليكية. أمّا اليوم، فلا تزال أحزاب اليمين، مع بعض المؤرّخين الإسبان، يردّدون هذه السردية، لا سيّما مع صعود حزب «فوكس» المتطرّف. ولا تنسى الباحثة، في هذا الإطار، الحديث عن الآثار السلبية التي خلّفتها أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، وعلاقتها بالرؤية الكاثوليكية - اليمينية للأندلس التي عزّزت النظرة السلبية إلى العالم الإسلامي بشكل عامّ. بعد أن تناقش الكاتبة تلك المسائل وتضعها في سياقها التاريخي، تُذكّر القارئ الإسباني بشكل خاص، في عدّة فصول، بتقدّم المملكة الإيبيرية في مسائل العلم والثقافة والفلسفة والفنّ والسياسة والاقتصاد، كما تسلّط الضوء على الاحترام الذي ساد تجاه الديانتين التوحيديتين الأخريين في العهد الأندلسي، إضافة إلى العديد من الجوانب التي من شأنها أن تبعث بالفخر الوطني لكلّ من يدّعي وطنيّته الإسبانية! تعمل ماريبيل فييرو Maribel Fierro أستاذة باحثة في «معهد لغات وثقافات البحر الأبيض المتوسّط»، وتركّز في أبحاثها على التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري للمجتمعات الإسلامية ما قبل الحداثة (شمال أفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية)، من مؤلّفاتها: «عبد الرحمن الثالث» (2011)، و«ثورة الموحّدين» (2012).

ماريبيل فييرو

معرض تأمُّل العالَم من حوض سباحة

ريم الجندي الماء كاستعارة

في معرضها الحالي، تهرب التشكيلية اللبنانية من ضوضاء بيروت إلى قرية عمشيت المحاطة بالماء؛ حيث تستخلص عالمها الجديد المتمثّل في حوض سباحة

بيروت ـ **العربي الجديد**

على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، اتسمت أعمال التشكيلية اللبنانية ريم الجندي (1965) بتمثيل يومياتها وحياتها الشخصية المتفاعلة مع ما يدور حولها من قضايا نفسية وأنثروبولوجية وفلسفية وسياسية وثقافية. ولطالما كانت مدينة بيروت الأرضية التي انطلقت منها الجندي لتُعبّر عن سخطها أو موافقها السياسية والإنسانية والاجتماعية التي كانت أقرب إلى العنف والقساوة لكونها من جبل الحرب والهجرة والهروب؛ وهذا ما أثّر على ألوانها وموضوعاتها التي اشتغلت عليها منذ بداياتها الفنّية.

في معرض «ملمس الماء» الذي يستضيفه «غاليري أجيال» في العاصمة اللبنانية، حتى الحادي والثلاثين من آب/أغسطس الجاري، تُحاول الجندي، رغم إصرارها على أنّها امرأة مدينية بالدرجة الأولى، أن تكون امرأة مهجّنة، أي أن تهرب من ضوضاء العاصمة إلى قرية عمشيت المحاطة بالماء في جبل لبنان، حيث ستخلق عالمها الجديد المتمثل في حوض سباحة وما يحيط به من عناصر.

إنّها لوحات من يوميات حوض السباحة الذي ترتاده الجندي، خيالياً أو واقعياً، وربما تكون يومياتها هي أو يوميات أيّ امرأة ترتاد حوض سباحة، حيث يستعير الماء نسيج الأشياء الأخرى ويلمسها، كي يخلق شيئاً واحداً لا غير: الوهم. ربما لهذا السبب انجذبت التشكيلية إليه؛ فهو يصلح كمرآة نفسية تساعدنا في تحديد صورتنا، وفي إعادة شيء من البراءة والعفوية إلى صلف تأملنا الخاص.

في أكثر من عشرين لوحةً بقياسات مختلفة، اشتغلتها في الأعوام الثلاثة الماضية، ترسم الجندي لحظات الحياة كما تمرّ في حوض السباحة، وبألوان قليلة: الأزرق والأصفر والأخضر. إنّه عالم مكوّن من ألوان ثلاثة، ولكنّه عالم كامل، فيه هشاشة بدرجة القساوة نفسها، وحركة بدرجة السكون نفسه.

الطبيعة، الإنسان، الأنوثة، النقاء، العذوبة، الصيف، الإثارة، المرايا والعابها، الرغبات، الحلم، الهروب من الواقعي، ملامسة الوهم، الأمل؛ كلّها موضوعات تتحرّك في لوحات الجندي وفي أجساد الموجودين فيها، وفي الماء الغنيّ بكثير من الانعكاسات والظلال. الماء هو دم اللوحة وحياتها، وهو بذلك حياة كلّ من يتحرّك داخل فضاء اللوحة. لكنّ الماء هنا ليس إشارة إلى ما هو طبيعي وملموس وواقعي فحسب، ولا يكتفي بأن يكون السائل الذي يحتويه حوض السباحة، بل وهم العوالم الموجودة في الحلم والمخيّلة، بالطريقة نفسها التي لا يمكن أن نعبر فيها النهر مرّتين، كما قال هيرقليطس، لا يرى المتلقّي الماء الموجود في لوحات الجندي مرّتين؛ فهو ماء متجدّد، متحرّك دائماً في عقل المتلقّي وأحلامه، وهو قابل لتأويلات عديدة؛ فهو الذي يحملنا إلى البعيد، في إشارة إلى الهجرة والسفر، ويمضي كالأيام، في إشارة إلى حتمية الموت، ويجعلنا نشعر بذواتنا في لحظة تأمّل أو في غفوة بجانب حوض سباحة. لكن بمجرّد أن نقترب من اللوحة لن نرى الماء نفسه، بل سنرى صورتنا المنعكسة على مرآته.

> لا نرى الماء نفسه في اللوحة، بل صورتنا المنعكسة على مرآته

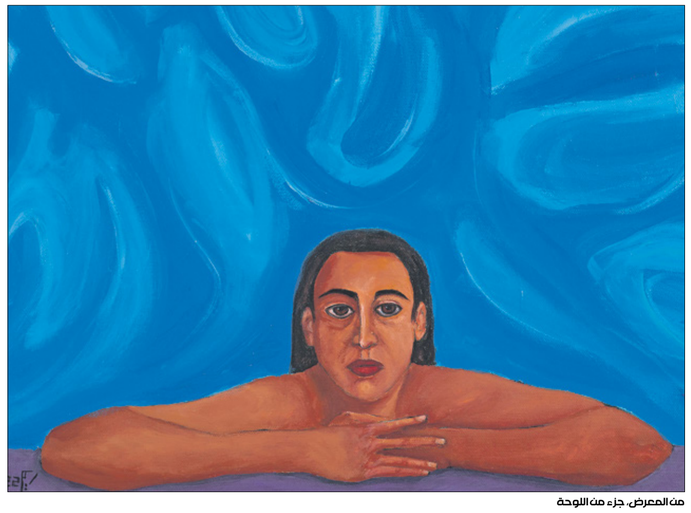

من المعرض، جزء من اللوحة

فعاليات

عند الواحدة من ظهر الجمعة المقبل، يُنظّم «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت، عبر منصّة «زووم» نقاش كتاب الفتيان **العودة تبدأ منك** (2024) للكاتبة **ميسون سكرية**، الصادر عن «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية». تُحاور **سارة زهران** الكاتبة حول قصّة الكتاب عن مُراهقَين فلسطينيّين يحاولان البحث عن سبب كونهما لاجئين.

ابتداءً من الرابع عشر من آب/أغسطس الجاري، يستضيف «مسرح الفنون الجميلة» في مدريد مسرحية **كريولانس، ما بعد شكسبير** للمُخرج الإسباني **إيميليو ديل فاي**. يتناول العمل، الذي يستند إلى نصّ للكاتب البريطاني (1564 - 1616) قصّة القائد الحربي كريولانس الذي يقرّر خيانة وطنه ومبادئه بمجرّد أن يرفضه الشعب، لينتهي مصيره بالمنفى والموت.

حتى الرابع عشر من آب/أغسطس الجاري، تعرض منصّة «أفلامنا» فيلم **طيف المدينة** (2000) للمخرج اللبناني **جان شمعون** (1944 - 2017). يتناول الفيلم قصّة صبي يُدعى رامي، عشية اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، يُجبَر على مغادرة قريته في الجنوب نحو بيروت، حيث يصادق ياسمين ووليد، ويواجه عبثية الحرب ومتاهاتها.

عند الحادية عشرة من صباح اليوم وغداً، تُقام في «متحف: المتحف العربي للفن الحديث» بالدوحة ورشة موجّهة للأطفال بين خمس وسبع سنوات بعنوان **لوحة الألوان: الفنّ التجريدي**. تهدف الورشة إلى تعريف المشاركين بعالم الأنسجة وقوامها لإنشاء أعمال فنّية مستوحاة من مجموعة «متحف».

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

أكرم الصوراني كاتب

ليس النزوح الأخير

من الحرب فصاعداً نحن لم نعد نحن... وأنا لم أعد أنا! كل شيء بخير... إلا أنا، وكل شيء بخير إلا غزّة! لقد فقدت مدينتي وفقدت نسختي القديمة من نفسي، ومع أنها كانت متخمة بالمشاكل والهموم فقد اكتشفت بعد الحرب أنها كانت أكثر سعادة وراحة وطمأنينة... وبعد الحرب فقط اكتشفت معنى راحة البال ومعنى قهر الرجال!

في «التغريبة الفلسطينية» لوليد أبو سيف يقول علي الشيخ يونس: «لم تكن خشونة العيش جديدة علينا... ولكننا نكتشف الآن أبعاداً جديدة للبؤس... إننا نفعل الآن ما لم نكن نتصور من قبل أننا سنفعله... إننا ننحدر بسرعة إلى حيث لا يبقى غير غريزة البقاء بأي ثمن... علينا أن نتخلى عما نصفه بالمشاعر المرهفة لأنها الآن تعوق قدرتنا على التكيّف والبقاء، ولكن... هل نستطيع أن نفعل ذلك دون أن نخاطر بمستوى إنسانيتنا! دون أن نتخلى عن احترام الذات؟». لقد اكتشفت مثل علي أبعاداً جديدة للبؤس، وأكثر ما يؤذيني الآن هو التعوّد، قبل الحرب كنت لا أحب التعوّد على شيء، بعد الحرب صرت أخشى من التعوّد، تعوّدت على حياة النزوح، كأنّ حياتي قبل الحرب كانت محض خيال، محض حُلم... قبل الحرب كانت ذاكرتي «سَمَكِيَّة»، ضعيفة جداً، لدرجة أنّي ومع كل صورة أقلبها في الجوال أجدني نسيت تفاصيل معظم حياتي قبل الحرب... بعد الحرب لم أعد أنسى شيئاً فأنا اليوم رجل بلا ذاكرة!

رغم مشاهدتي مسلسل التغريبة الفلسطينية، كنت أحرص بين فترة وأخرى على إعادة مشاهدة المسلسل وتحريض أولادي على ضرورة متابعة التغريبة والنكبة الكبرى عام 1948، لم أكن أتخيّل يوماً أني سأكون شاهداً لا مشاهداً على نكبة جديدة، نكبة ديجيتال، نكبة ثلاثية الأبعاد بالصوت والصورة!

منذ نزحت النزوح الأوّل من غزة إلى خانيونس كنت أتردّد كل ليلة في الكتابة عن يوميات الحرب، وكل ليلة أضع على وجهي البشكير للوقاية من ذُباب الشتاء وما تَيَسَّرَ من صراصير، وهو بالمناسبة ذُباب غبي وبليد جداً، لا يقل بلادة عن الغسيل الذي ينشف من الخوف وهو لا ينشف، القصف يشتد بعنف ليلاً، والذباب أيضاً، ولا أسوأ من الليل المليء بالقصف والذباب إلّا انقطاع الإنترنت بين فينة وأخرى!

المهم «حتى الآن ما زلنا أحياء» وهي عبارة جاهزة ومتوفرة في الأسواق لكل من يسأل «عن الحال» ولأنه من الكذب والسخافة أن تخبر أحداً أنك بخير ما عليك سوى نسخ العبارة أو أن تقول له «حتى الآن ما زلنا أحياء!». كانت الهدية الوحيدة التي نتمناها من «بابا نويل» عشية أعياد الميلاد التي زارتنا في نزوحنا الأول «ألا يصدر قرار بإخلاء المنطقة التي نسكنها!»... مؤخراً اكتشفت أنه ليس من الصحيح القول إن كلّ بداية صعبة، فالنزوح الثاني، وربّما الثالث والرابع، سيكون مؤلماً وأصعب وأقسى بكثير بعيداً عن الفرشة التي أكتب فوقها، بخاصة أنّي تعوّدت على أصدقاء مركز الإيواء الأول، وعلى الفأر الذي يسرح وينزح في المكان، الأوضاع صعبة جداً في الخيم ومُزرية ومُؤذية، وعليه فإنّ رعب القصف وتهديد الموت قد يكونان أقل قسوة من حياة التشرّد!

وما بين رعب القصف وقسوة التشرّد مساحة واسعة من نزلات البرد والنزلات المعوية والكحّة القذرة في ظل اختفاء الدواء من الأسواق، ورغم مرارة البحث عن لقمة الخبز عبر رحلة عذاب مُضنية تبدأ من لحظة العثور على كيس الطحين مروراً بنفاد الغاز وشح الملح والخميرة وصولاً إلى جشع أبي لهب وحزمة حمّالة الحطب، وتفاصيل ماذا سيأكل الصغار ولماذا طعام الغداء يشبه طعام الإفطار، فإنّ حضور الحمار صباحاً وهو يحمل لك مياه الشرب على ظهره يكاد يكون الأمل الوحيد في بقائك على قيد الدور أمام باب الحمام، وهو دور مزعج من زاوية الحشر، ومن زاوية نفاد ورق التواليت، واضطرارك لاستخدام فوط ماركة «دَبّر حالك!».

ما يحدث معنا يكاد لا يصدقه عقل، ولا يخضع لقواعد منطق، حالة أقرب للجنون، كل شيء يكاد يكون مجنوناً في هذه المدينة، الأخبار مجنونة، الأسعار مجنونة، كل شيء هنا مثير للجنون وللكآبة: علبة السردين كئيبة، الرغيف كئيب، فتلة الشاي كئيبة، كل كراتين المساعدات كئيبة ولئيمة وخبيثة هي الأخرى، تحمل ذات الأصناف وذات الكآبة، أستغرب أنّ بعضنا ما زال لديه قليل من عقل من هول ما يرى ويسمع ويشمّ في غزّة!

الحرب اليومية التي يخوضها الناس مع وحش الجوع، مع غول الخيمة، مع قذارة الحطب، مع الماء غير الصالح للشرب، مع المرض، ومع العلاج، ومع الفشل في تدبير كثير من أمورهم المعيشية تكاد تكون أقسى بكثير من شكل الحرب التقليدي، معركة قاسية وسط واقع أقسى لا صوت يعلو فيه فوق «صوت الملعقة» وأنه بقدر ما قد تُخرج منك الحرب أفضل ما فيك، فإنها تُخرِج أيضاً أسوأ ما فيك!

الأحلام كانت وستظل كبيرة، على شفاه المنسيين، ووجوه النازحين، وعذابات المُشرّدين، ستظل أكبر من الخيمة... من الخيبة الكبيرة التي وصلنا إليها بالسلامة! وستظل أحلامهم أكبر من «وطن خارج التغطية» ومن «وطن نص كوم» ومن «شسمو» وهي أسماء مؤلفاتي الثلاثة التي كتبت فيها منذ سنوات وليتني لم أكتب أو كما يقول لي الأصدقاء: «أكرم لازم نحاكمك بعد الحرب لأنك سنة 2015 حكيت ‹خيمة تخيبنا›، وسنة 2018 كتبت ‹كلنا مشاريع شحادة›، وسنة 2020..

في غزة
دبّ انفجار
دبّ الحصار
دبّ الصوت
دبّ الموت
في غزة دبّ الرعب والزفت

ربما أود أن أفضفض من قلب الخيبة وأطمئن الجميع أنّ ما من داعٍ للقلق علينا في غزّة

في غزة صَفَّينا على الإسفلت
في غزة من في غزة إلّا أنت...

كامل النص، بالكتابة والصوت في صفحتي على «فيسبوك» وكنت قبل ذلك كتبت قصيدة «الأحَا» ضمن لقاء على الهواء موجودة أيضاً على الصفحة، في ختامها خشيت من «الإمام وين وِدينا وأن تكون الآخرة سينا»! وكنت جداً متفائلاً بأن أمتنا أمّة واحدة ذات رسالة خامدة... ومن شدة تفاؤلي كنت كتبت «راح يجي يوم نصحى من النوم وتصحى الأمة وتحكي شالوم»!

وبعد، لا أود أن أزعج القارئ كثيراً بما كتبت، فقط ربما أود أن أفضفض من قلب الخيبة وأطمئن الجميع أنّ ما من داعٍ للقلق علينا في غزة فالحرب حققت لنا إنجازات غير مسبوقة! فأولادي كانوا يذهبون للمدرسة ويحملون الكتب على ظهورهم كما حمّالة الحطب نَحَلت أجسادهم وانحنت ظهورهم وألقوا الكتب في النار علّها تزيد من لهب الحطب، وَلّعوا بالتاريخ وبالجغرافيا وبالتربية الوطنيّة وهذا إنجاز غير مسبوق! عندما قصفوا المبنى... برج وطار من نافوخي... فجيش الاحتلال الصهيوني لم يقصف المبنى لكنّه قصف برجاً من نافوخي وشظايا هائلة من الذكريات تناثرت في المكان، وعشرة طوابق من الأمل، وتسعة أحلام، وفردة مستقبل كانت مُلقاة على الأرض خلف الجرّامة مع دبدوب أجرب، وسيارة صغيرة من دون عجلات، وعروسة باربي من دون رجل وبرأس مفصول لم نكن نهتم به ولا بلصقه بالجسد، وألبوم من الصور على البحر وصور الزفّة وتسريحة الشعر التي أزعجتني ليلة الدخلة من شدّة البكل وكراكيب غرفة الخزين والمطبخ وقداحة الغاز والبُرنص خلف باب الحمام والمنشفة وطاولة السفرة وطاولة الزهر ودفتر تسجيل خاص بلعبة «الهاند ريمي» في آخره ورقة خاصة بالديون وفواتير جوال وفواتير الماء والإنترنت والكهرباء وقميص النوم «الفوشي» و«البزّ الكذّاب» و«الزنوبة» ومقص الأظافر الحافي وبطارية 18 أمبير لموزع الإنترنت وعلبة «ماكنتوش» مخصصة لحبوب السكر والضغط والمعدة والاعصاب والحموضة وطقم كاسات فاخر مُعتَقَل بالبوفيه من سنة 1997 بتهمة «خسارة هاد يطلع للضيوف» وبعد القصف طلع في الشارع و«طلعنا غلطانين» أي أننا كنا مخطئين عندما عاقبنا ابننا الصغير بتهمة كسر الفنجان، لم نكن نعلم أننا أيضاً ننكسر! تركنا كلّ شيء، تركنا المنزل والشبابيك والستائر والصابون ومعجون الحلاقة والكنب وكلّ الفناجين حتى الطقم المُعتَقَل بالبوفيه والليمونة التي كنا نحرص دائماً من «باب الهبل» على وضع نصفها في باب الثلاجة الذي ربما هو نفس الباب الذي غنّى له عاصي «عمرك شفت شي باب عم يبكي؟» لأ.. شفت خيمة!

تركنا خلفنا حوارات ونقاشات وطوش وقُبَل لم تكتمل على السرير وبقايا طعام وزجاجة كولا سعة لتر وربع وكاسات كرتون وحواديث ما بعد العشاء وخصوصيات تناثرت على الشارع وسلسلة مفاتيح وسلسلة مشاكل كانت تبدأ ولا تنتهي!

تركنا خلفنا أوّل قُبلة ، وأوّل سنة حب، وآخر الممر والجرّامة ورائحة الجرابات والملابس الداخلية وصوت الغسّالة المُزعج و«الوجبة البيضا» وتعليمات الحكومة المنزليّة «ميت مرّة حكيت تشلحوا الجزم ع الباب»... طارت الجرّامة وطار الباب وطار معه برج من نافوخي!

القصف حتى اللحظة يكاد لا يتوقف... يبدو نسفاً لمربعات سكنية «الصوت واصلنا من رفح»... الزنانات فوق رأسنا أيضاً لا تتوقف، و«الكوادكابتر» رعب في الليل بخاصة عند الذهاب للحمام... وصلنا إلى العراء... بين السماء والطارق.. «بالبلدي» في الشارع... نزحنا من رفح كما الآلاف تحت تهديد القصف العنيف... وصلنا كما يعتقد البعض إلى الحلقة قبل الأخيرة.. وصلنا إلى المواصي وهي منطقة قريبة جداً من البحر «خمس دقائق مشي» ووصل معنا ذباب حقير وحشرات لم تتعرف عليها ناشونال جيوغرافيك بعد... فقدنا غزّة وحياتنا وممتلكاتنا هناك وفقدنا آدميتنا في الخيمة... قريباً سنتحول لكائنات «برمائية» وفي أحسن الأحوال لـ«ماوكلي» فتى الأدغال... الحمد لله عندي خيمة، غيري مش ملاقي.. حلمي في السفر تبخّر بعد احتلال المعبر... آمل ألّا يحدث معنا كما حدث مع حلمي!

ما زال بحوزتي «أوقية أمل» أن تنتهي الحرب قريباً مع أن ذلك بعيد... وما زال بحوزتي أمل أن يحفظ الله أسرتي وعقلي بعد أن انتهت صلاحيتنا للحياة! الاتصالات صعبة، الإنترنت رديء بعض الشيء «ما أجتش عليه بعد ما الدنيا كلها أجت علينا»!

وبودّي أن أخبركم أن السنة الدراسية انتهت ولأوّل مرة لا أكون فخوراً بتفوّق أولادي... خالد وكارمن سنة أولى خيمة!

بدأنا فصلاً جديداً من المعاناة والخيبة... «دير البلح»... النزوح الرابع.. والمحطة القادمة في علم الغيب!

من تحت القصف، من فلسطين من غزّة، إلى خانيونس، إلى رفح، إلى المواصي، إلى الخيمة، الى دير البلح وصلنا بالسلامة الى المجهول ولم تصل أحلامنا بَعد، ولم تصل آمالنا بَعد وأخشى أن تكون قد تَبَخّرَت في الطريق!

وداعاً!

هناء أسامة كاتبة

محادثة ذاتية

إلى هناء،

تذكرين البيت؟ هذه روائح البيت يا حبيبتي، ونهار الجمعة واجتماعُ للعائلة فيما يبدو الآن من هذا المكان إعادة تجمّع العائلة أمرًا في غاية الصعوبة. تذكرين تلك الأيام جيدًا، ولا تعرفين كم تُؤثر في روحكِ تلك التفاصيل الصغيرة، شجرة الليمون المزهرة التي تكون رائحتها صباحًا بديعة، شمسٌ باردة في الصباح، تغطيها بعض غيوم بيضاء عابرة، وقوفك في منتصف الحاكورة تبحثين عن السلحفاتين، أسميتِ واحدة منهما تيمور، والأخرى ظلّت بلا اسم تقولين عنها السلحفاة الصغيرة، جلوسك مع بابا في حاكورة البيت، تحكين له عن أسبوع عملٍ شاق جديد، وتحكيان عن السفر والتعب والحاجة الدائمة ليوم جمعة دائمًا، تحكيان عن الآمال الكبيرة وخططٍ لحياةٍ كانت سعيدة، وهانئة..

تجلسان مثل صديقين قديمين يعرفُ أحدهما الآخر جيدًا. هل تذكرين ضحكة بابا جيدًا؟ يُغمضُ عينيه، تظهر عند زاوية عينيه خطوط كثيرة، وَرِثْتها أنتِ عنه، بعد سنوات اكتشف أحدهم في واحدة من أيام الحرب الطويلة تلك «الكرمشة» عند زاوية عينيك وأحبها. يعود بابا بجسده إلى الوراء قليلًا ويضحك، فيما تسألينني بإلحاح وطفولة، هل يضحك بابا كما كان يفعل سابقًا؟

تذكرين البيت، وكيف كانت العودة إليه كل يوم أكثر فعلٍ جليل وشاعريّ، كيف كانت خطواتكِ تُسرعُ حين تصلين إلى رأس الشارع، ويتراءى لك البيت من بعيد. وتذكرين جيدًا لحظة خروجك منه، والحقيبة الثقيلة على ظهرك، أتساءل الآن وأنا أنظر إلى الحقيبة أمامي بينما أكتب، كيف اختصرتِ البيت في تلك الحقيبة؟

تذكرين صديقتك هبة التي توقفتْ عن عدّ مرات نزوحها، والتي فاقت عدد أصابع يدها.. كنتِ تخبرينني بمرارةٍ عن البيوت التي سكنتها مدة يوم، وعن البيوت التي سكنت أرصفتها فقط، وعن البيوت التي ظلّتْ فيها حتى خرجتْ في رحلة نزوحٍ جديدة، كيف كانت تترك بعضًا منها في كلّ بيتٍ تنام فيه ولو لليلة واحدة، كم فكرة، كم صلاة في كل بيت، وكم صورة التقطت لها ولعائلتها الصغيرة. أتذكر صوتكِ ممتلئًا بالدموع يخبرني أنّ هبة غادرت إلى مصر، وأنّ الأصدقاء يرحلون، كيف تغادر هبة البلاد؟ وهي التي تحتاجين وجودها حتى تظلي على وفاقٍ دائم مع الحياة. قبل نزوحك من البيتِ أرسلتِ لها رسالةً نصيّة: «لا أريد الخروج من البيت. البيت هو روحي». أرسلتْ لكِ: وروحي أيضاً يا هناء.

النزوح، هذه الكلمة التي لم تستخدميها من قبل وتشبه اقتلاع الروح من الجسد، يا هناء ذلك الصباح الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، والذي سيظل في رأسك كل هذه المدة، ولن تستطيعي مهما فعلتِ أن تتناسي ذلك اليوم قبل أن يحتفل العالم ببداية جديدة، كنت تتجهزين للقيامة.. وقفتِ تحملين هاتفك تلتقطين كل زاويةٍ وتحفظين تلك الصور في داخل رأسك، تودين لو كان بإمكانك ابتلاع البيت كله في داخلك، تأخذينه معك، تضعينه في جوفك، وتسيرين به إلى الأبد. كيف عانقتِ جذع شجرة الجوافة وأغمضتِ عينيك تتوسلين لها أن تصمد، وتحرس البيت.. تخبرينها أنكِ ستعودين، لا بدّ ستعودين، تهاتفينني قبل خروجك، وبالكاد أسمع صوتك تقولين إنكم ستغادرون البيت، أسألك أين تقفين؟ تجيبينني: تحت أشجار الكلمنتينا. ثمّ بخطوات لا تعرف إلى أين تذهب، غادرتِ البيت! سرتِ للأمام، أقدامكِ تريد العودة إلى هناك، لم أعرف يومًا خطواتٍ قصيرة وخائفة كتلك التي كانت يوم تركت البيت، لم تلتفتي للوراء، لم ترغبي أبدًا أن يصغر البيت ويصبح بعيدًا إلى الحد الذي تقف بينكِ وبينه دبابة وسلاح.

تلك الليلة، في مكان نزوحكِ الأول -لأن هنالك مكانًا ثانيًا- لم تنامي، كنتِ متعبةً يا حبيبتي ظلّ البيتُ يلوح لكِ، يجيء ويغيب، في العتمةِ والبرد في زاوية ما من المكان، جلستِ منكمشةً على ذاتك، تبكين، تقضمين أصابعك، يبتلعك الخوف، يكبر فيك تصيرين تحت وطأته فريسةً ينهشك كل دقيقة. «أريدُ العودة إلى البيت»، كانت تلك الكلمات دائمًا هي إجابتكِ عن كل الأسئلة، الإجابة الوحيدة المنطقية عن سؤال كيف حالك؟ «أريد العودة إلى البيت». ولم تعودي بعدها بسرعة.

تذكرين الشارع الطويل ويوم النزوح الماطر، كيف اختلطت دموعكِ بالسماء، كانت السماء تبكي وكنت تنهمرين معها، هل خطر في بالك في تلك اللحظات الحرجة أنك ستستطيعين النجاة، وستكونين قوية وترويين لي حكاية نزوحك؟ وانتظرتكِ، انتظرتُ عودتك تخبرينني بحماسة لا مثيل لها، كيف أنّك تستخدمين كلماتي البسيطة الهادئة في نصوصك: «نصوص جيدة هكذا تخبرني صديقتي» أقول: حب فتقولين حب، أقول بيت، عائلة، دافئ، كتاب، مشاعر، حبيبتي. فأعرفُ أنّ هذا صوتكِ يخرج من خلالي منسابًا مثل نهر، وساطعًا مثل شمس.

عمل للفنان الفلسطيني يزن ابو سلامة

كنتِ خائفة من النزوح واعتصمتِ في المكان الثاني ولم ترغبي أبداً أن تتعاملي مع نزوحك بشكل حقيقي

أتذكر اليوم الأول لعودتك إلى العمل، كنتِ خائفة من النزوح واعتصمتِ في المكان الثاني ولم ترغبي أبدًا أن تتعاملي مع نزوحك بشكل حقيقي، ولا أن تسمعي المزيد من القصص والألم حتى وضعوكِ في مواجهة كاملةٍ معه، وصرتِ تكتبين قصص الأولاد من هناك، من المدن الصغيرة التي ظلّت وراءهم، تسألين أحلامهم أن تكبر، وأملهم ألا ينقطع. لم تخرجي للشوارع، لم تعرفي كم عدد الناس حولك، ولم تربطي شوارع المدينة الجديدة ببعضها حتى لا تضيعي فيها، كنت مختبئةً وخائفة، ومرهقة وكان النزوح يخدش رهافة شعورك، كنتِ مرهفةً، تبكين لشجرة ليمون لا تزال تزهر وتتذكرين شجرتك التي اقتلعتها الجرافة من جذورها، تسألينني بيأس ولم أعرف بماذا أجيبك: لماذا حدث كلّ هذا؟ تقرئين عليّ مقاطع من الكتاب الوحيد الذي أخذتِه معك في حقيبتك «سقف الكفاية».. تخبرينني أنك تحبين رسائلي لكِ وأنّ الحب أكثر من أي شيءٍ آخر قادرٌ على إنقاذنا. حاولتُ أن أحميكِ من سقوطكِ وبكائكِ ويأسكِ وأن أعيدك إلى البيتِ بطريقةٍ ما، أرسلتُ لكِ صورةً للبيت كنتِ مشتاقةً له، وبعد غياب طال مدة شهرٍ كامل عنه، شعرتِ بروحكِ تعود لك وأنت تعرّضين صورة البيت على بابا، تخبرينه أن البيت بخير تمامًا كما تركناه آخر مرة. ترسلين لي عندها: أنت بطلي، أقول لك: وجدتها مصادفة. تُصرين على كوني بطلًا حقيقيًا، ثمّ أرى ابتسامتك العملاقة وتغيّرًا واضحًا في لحن صوتك، كنت ترقصين مثل فراشة، شعرتُ بك. مدّة نصف ساعة وأنتِ تبحثين في الصورة تخبرينني عن الأشياء التي سقطت من البيت، سقطتْ أسواره وعريشة العنب التي زرعها جدّك بيديه قبل ثلاثين عامًا، والأشجار الأمامية، كل الأشياء حوله كانت تريد له أنّ يظل واقفًا، أنا، أنت، الحياة، الشارع، الشجرة، الجيران. بينما كان الثقب الأسود يحاول أن يبتلعه، كنّا نمسكه بأيدينا، ونشدّه، نشدّه ناحية النجاة، وناحيتك.

لم يسقط البيت يا حبيبتي. مثلكِ تمامًا شامخًا وثابتًا مثل أصحاب الأرض. مرارًا وتكرارًا بكيتُ، أريد العودة إلى البيت، توسلتِ، انتفضتِ، استسلمتِ مرات كثيرة، ثمّ عاندتِ، انهمرتِ وسقطتِ وبكيتِ. وبكيتِ إليّ، بصوتٍ مرتجف غائم، طلبتِ منّي أن أعيدكِ إلى البيت، وحاكورتنا، غرفتك، نافذة الغرفة، نصف الجدار الذي بقي، كتبكِ، ودفاترك التي تكتبين فيها، رأس الشارع، الشارع ذاته.. يا هناء، يا هناء.. عدتِ إلى البيت أخيرًا، بجناحين أقوى وقدرةٍ على التأقلم أعلى، ورغبة في عناق الحائط المتصدع، العمود الذي صمد، السقف الذي لم ينهر، بركة الماء التي أمام البيت، رغبة في لمس كل أشيائك، في إعادة صور ماما على باب الخزانة، وترتيب الكتب على رفوف المكتبة، في محاولة الزراعة مجددًا، في البحث عن الغائبين، وفي الكتابة عن هذه المدينة، عن حزنها، ركامها، حاراتها، شوارعها، وأولادها الّذين تحبينهم، ويعلمونك كل يومٍ معنى أن يتشبثّ المرء بالحياة.

إلى هناء،

الأمل، الأمل بالفعل كلمة حقيقية (أكدت لي أنّه موجود).. وجدتِها بين زهرتي حنون في ركام الشارع -أمام بيت أبو شوقي جارك- المتهدم تمامًا، التقطتِ صورةً للزهرة، أرسلتها لي تقولين: صورة بعنوان الأمل. هل ما زلتِ مصممةً على أنّه لا يزال هناك أمل؟ وإليكِ، إليك مرةً بعد أخرى.. هل لا يزال «البيت» كلمتك المفضلة؟

مخيم المغازي، غزة الأحد 21 نيسان/ إبريل 2024